

مراثي "منى"
إدريس عيسى

إلى روح أمي في ترحالها الكوني السعيد، هناك

(السائرة في رفقة الضوء بلباس صاف)
(متوالية الفقد)

(والشمس تجري لمستقر لها)
قرآن كريم، يس، 37

- 1

حصانٌ أبيض
مجبولٌ من يقظةٍ ونأيٍ
مضاءٌ كفلهُ بيقظته
تحدّرُ إليك من سراحِ ذاكرةٍ
وارتحالٍ عنيين
مشى منجذباً إلى يديك في هدأة الأشجار
كأنه يعرفهما في تلويحٍ ورائحةٍ
كأنك تحملين مِدودَه لدى جفنة مائه المنذور
وتصلين عرفه بالصباح
دنا من ديوانك فنيمت
ونامت ستائرُ العُرفِ الصغيرة
وهدت ريحٌ في حديقة الأكاسيا
وجاء الليل الذي شمل الجدر
ولم يزح كفيته عن النوافذ
ولا عن أعيننا.

- 2

الحصان أتى
من بريّةٍ فسيحةٍ معلقة في حلم بنت الخالة
قبل أن تحكي حلمها
قبل أن تنامي بعيداً عن الساعات والتقويم
بلا سرج ولا لجام تَقَدَّم

ليزفر صوب مخدتك
وأنت تنظرين أعلى
تترصددين الغداف الأخير
الذي يحوم في الماوراء
بريئة من الوقت والناس
بريئة من جسدك المخدول؛
ترايك الذي حملته إلى آخر التراب

- 3

حصانُ خامٌ
لا ينشطر ظلّه الموفور في أرض
لا تقيدّه شمس
ولا تأخذّه العتمة
حصان من هناك؛
حيث تغمى الخرائطُ
وجداول الرمل
والكتب
مدهونٌ عرّفه برائحة فُصوى
نعرفها دائماً
كلما تذكرنا إسطبلات الليل
حيث، بمصابيح وقور كابية
ولباس من عبّرة ورحيل،
يتيه حواذي عُشيّ
مُنقَرين رائحة الخيل
التي لن يعودوا بها
عقودة بأيديهم أعرافها الحرة

- 4

كأنّ ناصية الحصان المُسبلة في كمالها
تدلّت على مخدتك ووجهك
فراحت بك عيناك
إلى الضوء الواحد
الذي يوحد السبل
في شتات الأرض

- 5

بياض البهيمة
ظلُّ مطموسٌ لكفنٍ معلق
تئوس به ريحٌ في شجرة ميتة
بياض البهيمة تلك
سمَّز الظلمة في الجذامير
والهبايات العتيقة
وراء بيتك الذي مرَّت به الخيل

- 6

كأنك لم تنامي
دائماً نعود إلى الفراغ
حيث كانت يداك تسندان الهواء
وجسمك المسجى يتقلب
كنهر محتجز في سريره
تتجاذبه المصبات والينابيع
والضفتان
كأنك لم تبرحي
ولم يُحاذِ الحصانُ ليل الحديقة
ولم يضاعف بياضه ظلمة الجذوع
جوار بيتك الذي مرَّت به الخيل

- 7

لم أَعُدْ تحت شجرة الأمومة
صحراء انطبقت على شفتي
لل كلمات أجنحة من ملح وغبار
ووجهي إزاء الموت
هأنذا مرة أخرى أتلعثم
على عتبات الرماد

- 8

الألم، دائماً، شمسٌ باكرة
تفجأ الشرفات والأبواب والجُدُر
وتُعشي من يرى الظلال

كي يسأل عما يحجبه الضوء العتي
وعن يديه تدعوها العتمة
كي يتذكّر صحوّة القنديل

- 9

الكتاب، مفتوحاً إلى آخره
وموضوعاً على حافة الفهم،
دُرُورٌ يُدَوِّمُ في مهمه
الرُّحْلُ، مشدودين إلى المدى،
حادوا عن منزل الكوكب
السُّبُلُ التَّبَسَّتْ في أرجلهم
وفي أعناق البهائم
والطريق الذي هم فيه
يعطيهم رائحةً واحدة:
كأنما الأرض والألبسة القديمة
تصعدان من قعر التوابيت

- 10

حصان؛
عينان تجذبان الغياب
وعرفتُ سابغ يتهدّل في كمال
كأن الحيوان استراحةً الضوء
من المرأة الكمداء
التي بها يتقدم الليل نأداً أشباهه
طائشاً في رداه الكون
ممزّقا أحمصيه
على صخر كوكب يولد